مسابقة الأدب العربي

القيادة الفكرية
بين الفلاسفة والأنبياء
للدكتور زكي مبارك

تاريخ لطيف !

في السبت الأول من نوفمبر سنة ١٩١٩ وقف ثروت باشا رحمه الله بقاعة المحاضرات في الجامعة المصرية وألقى كلمة طيبة قدّم بها الدكتور طه حسين إلى الجمهور، وقد قال في تلك الكلمة إنه يود لو كان سعد باشا حاضراً ليقدّم الدكتور طه على نحو ما صنع في العام الماضي وهو يقدّم الدكتور أحمد ضيف « وكان سعد باشا يومذاك منفيًّا بأمر السلطة العسكرية »

ثم وقف الدكتور طه ليلقي محاضرته الأولى فشكر أعضاء مجلس الجامعة، من كان منهم في مصر ومن كان منهم خلف البحر « وهو بهذا يشير إلى سعد باشا زغلول ومحمد باشا محمود » واندفع بعد ذلك في محاضرته فحدثنا أنه عزم على إحياء التراث اليوناني، لأنه يؤمن إيماناً جازماً بأن مرجع الفكر في الشرق والغرب إلى القدماء من مفكري اليونان

وما كاد الدكتور طه يفرغ من محاضرته حتى نهض أحد طلبة الجامعة واسمه زكي مبارك فردّ على الدكتور طه ردًّا خطابيًّا أثار إعجاب الجمهور، فوقف الدكتور طه وردّ على الطالب ردًّا ظفر بشيء من القبول

وبدا للأستاذ محمود عزمي أن يؤرخ وقع المحاضرة الأولى للدكتور طه بكلمة ضافية في جريدة الاستقلال، ولم يفته أن يوجه عبارة نابية إلى الطالب الذي ثار حين رأى من يقول بأن مرجع الفكر كله إلى مفكري اليونان

وفي المحاضرة التالية رأى الدكتور طه أن يبدأ بكلمة في التعقيب على مقال الأستاذ محمود عزمي، ليبين خطأ الطالب

وقد تمنيت أني معتكف مع المعتكفين ووددت أن أظفر بهذه السكينة في حجرة من هذه الحجرات رمضان من العام القابل

قلت للاخوان مازحاً : إنكم لفي نعيم . وإن غير المعتكفين لا يظفرون بمثل هذه المائدة . وقال السيد المجددي وهو يضيء الكهرباء : هذا اعتكاف آخر الزمان . قلت : هذا اعتكاف إسلامي فيه الطمأنينة والعبادة والفكر ، وليس فيه الحرمان والإرهاق « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . وشربنا الشاي وتحدثنا قليلاً فسمعنا النداء للعشاء فسرنا إلى قبة الصخرة فدخلنا وقلوبنا تخفق مع هذه القناديل الخافقة . وانتظمت الجماعة في المصلى الخارجي وسمعت تسبيح النساء وراء السياج المحيط بالمصلى الذي تحت القبة فعرفت أن لهن جماعة من وراء هذا الحجاب . وأقبلنا على صلاة العشاء والتراويح . فلما قضيت الصلاة وسرت إلى الباب الشمالي رأيت جماعة أخرى يؤمّ بها السيد المجددي ؛ وقيل لي إنها جماعة الحنفية يصلي بها هذا السيد العُمري الأفغاني كل ليلة . وما أجدره بالإمامة في مدينة عمر

استأذنت المعتكفين وخرجت كارهاً أود أن يطول لبثي في هذه المشاهد على طول ما لبثت فيها . خرجت وأنا أجيل الطرف فيما حولي لأثبت ذكراه في نفسي وأود أن أسير سريعاً في ظلمات الليل فأطوف مرة أخرى بهذه الساحة الفسيحة التي أمضيت فيها معظم النهار وشطرا من الليل

ذهبت إلى التكية البخارية فلبثت ساعة في ضيافة شيخها الشيخ يعقوب البخاري ، وما هذه التكايا والمساكن النظيفة الطاهرة المجمّلة والمزينة بالأوراق والأغلاق إلا مساجد صغيرة . فقد عددت هذه الساعة من ساعات المسجد الأقصى أيضاً

ومضت بنا السيارة إلى رام الله حيث الفندق الذي أنزل فيه ، ولا تزال هذه المشاهد في عيني . وملء فكري ، تاريخ من المجد ، وعصور من الخطوب ، وصفحات من العِبَر ، وملء قلبي آمال وآلام . ذِكر ناضرة يتخللها الألم كما تقدح النار من الشجر الأخضر — رجعت إلى مأواي وقد طويت العصورَ في تلك الساعات ، والأحداثَ العظيمة في تلك الآثار ، ثم طويت تلك الساعات القليلة وتلك الآثار الجليلة في فكري وقلبي .

عبد الوهاب عزام

الذى ثار عليه ، فنهض زكى مبـارك وقال : لا تتعالوا علينا ، فى مقدورنا أن نساجلكم بالحجج والبراهين

وفى تلك اللحظة مال إسماعيل بك رأفت على أذن الدكتور طه فأسرّ إليه كلمات ، فانصرف الدكتور طه عن التعقيب ، ومضى فى المحاضرة الأساسية و « ليس » فى نفسه أشياء

بين تاريخ وتاريخ

هل تغيّر الرأى عندى فى هذه القضية بين نوفمبر سنة ١٩١٩ ونوفمبر سنة ١٩٤٣ ؟

وهل تغيّر الرأى عند الدكتور طه فيما بين هذا التاريخ وذاك التاريخ ؟

لم يتغير رأيى ولا رأيه ، وأنا موقن بأنى على هدًى وإن لم يكن الدكتور طه فى ضلال

ولكن ما الموجب لإثارة هذه المشكلة وقد تقادم عليها العهد؟

الموجب هو إصرار الدكتور طه على القول بأن مرجع الفكر فى الشرق والغرب إلى القدماء من مفكرى اليونان ، وحرصه على إثبات هذا القول فى الكتاب المقرر لمسابقة الأدب العربى ، وكان قبل ذلك مقرراً للمطالعة فى المدارس الثانوية ، ونحن لا ندع أبناءنا يقرأون كلاماً يساق بلا بينة ولا يقين

يضاف إلى هذا أن الدكتور طه عقد فصلاً خاصًّا بهذه القضية عنوانه « بين الشرق والغرب » ، وقد أراد بهذا الفصل أن يجعل القيمة العقلية من حظ الغرب ، وأن يجعل البوارق الخيالية من حظ الشرق ، وانتهى إلى النص على أن الغرب وطن الفلاسفة وأن الشرق وطن الأنبياء

فماذا يريد الدكتور طه بهذا القول ؟ وما حظه فى أن يقرر أن العقل الشرقى انهزم أمام العقل اليونانى مرات فى التاريخ القديم وأنه ألقى السلاح فى التاريخ الحديث ؟ وما الغرض من الإصرار على أن العقل الشرقي يذهب فى فهم الطبيعة وتفسيرها مذهباً دينيًّا قانعاً ، بدليل أنه خضع للكهان فى عصوره الأولى وخضع للديانات السماوية فى عصوره الراقية ؟

لا بدّ من نقض هذه الآراء قبل أن يُفتَن بها التلاميذ ، لأنها صادرة من رجل ممتاز من الوجهة الأدبية ، أو لأنها مسجلة فى كتاب رُقم عليه اسم وزارة المعارف العمومية

وما الذي يمنع من تبصير الدكتور طه بالصواب ؟

هل نجا من شوق التعرف إلى الحق ؟

وهل هان الشرق على أهله حتى نسكت عمن يرمونه بالعقم والإحال فى الميادين العقلية ؟

على الدكتور طه أن يسمع ، وله أن يجيب إن كان يملك الجواب

نماذج من الأخطاء

وقبل أن نواجه المشكلة الأساسية ، نذكر نماذج من أخطاء الدكتور طه فى تصوير الحياة العقلية

فمن أخطائه أن يتوهم أن أخذ اليونانيين عن الشرقيين نظام النقد ونظام المقاييس ليس إلا عملية مادية . ومن أخطائه أن يهوّن من فنون الحساب والهندسة فيجعلها فنوناً عملية لا عقلية . ومن أخطائه أن يقول بأن سيادة النظام الملكى فى الحكومات الشرقية دليل على أنها لم تنضج من الوجهة السياسية

وهذه الأخطاء فى الفكر لا تحتاج إلى شرح ، فمن الواضح جدًّا أن نظام النقد كنظام المقاييس وثيق الصلة بالحياة العقلية . ومن الواضح جداً أن فنون الهندسة والحساب ليست فنوناً عملية إلا عند التطبيق ، ولكنها فى ذاتها فنون عقلية . ومن أوضح الواضحات أن نظام الحكومة وسيلة ، لا غاية ، فإن نجح النظام الملكى فلا بأس ، وليس من الحتم أن تكون القلقلات الحكومية فى التاريخ القديم دليلاً على أن اليونان كانوا أرقى الناس فى الحياة السياسية

والخطأ الأعظم هو أن يقف الدكتور طه موقف المقرر المتحكم فى قضية واهية الأساس ، فما كان اليونان كما أراد لهم أن يكونوا ، ولا كان هو نفسه يوقن أنه يملك توجيه مؤرخي الفلسفة من المحدثين ، كما حاول أن يقول

فلسفة وأنبياء

حجة الدكتور طه على قوة الغرب أنه وطن الفلاسفة ، وحجته على ضعف الشرق أنه وطن الأنبياء ، فما قيمة هذا الكلام إذا أقيمت له الموازين ؟

لا يمكن فهم هذه المسألة فهماً علميًّا إلا إذا غضضنا النظر

عن الناحية الدينية ، وجعلنا الأنبياء والفلاسفة رجالاً كسائر الرجال ، وهم كذلك بالفعل ، فقد صرح القرآن بأن الوحى هو الذى يميز الأنبياء عن الناس ، فما كان الأنبياء ملائكة ولا آلهة ، وإنما هم ناس

يجب أولاً أن نعرف من هو الفيلسوف ؟

الفيلسوف هو محب الحكمة ، هو رجل يريد أن يسمو بنفسه عن الجهل ، ويهمه أن يتحرر من تقاليد الأغبياء ، ولكنه فى أكثر أحواله يؤثر السلامة ، وقد يركن إلى الخمول ، ومعنى هذا أن الفلاسفة لم تكن لهم فاعلية ، بدليل أنهم عاشوا فى عزلة عن المجتمع ، ولم يفكروا فى إقامة حكومة تحقق آمالهم فى شرف الوجود

وسقراط أبو الفلاسفة لم يسلم عقله من الخضوع لمبدأ أبوللون ، وكان حاله عند الحكم عليه غاية فى سوء المصير ، فقد ظهر أنه لم يستطع خلق عصبية تحميه من القتل ، ولم يكن تلاميذه وحواريوه إلا أنصاراً لا يجيدون غير البكاء

وكان هذا عيباً فظيعاً ، لأن سقراط نشأ فى عهود الفروسية ، فلو كان فيلسوفاً متسقاً مع زمانه لجعل تلاميذه من الفرسان ، فى زمان لا ينتصر فيه غير الفرسان

أقول هذا وأنا أعرف أن استسلام سقراط للموت خلق صوراً شعرية قليلة الأمثال ؛ فقد أوحى إلى أفلاطون ما أوحى ، ثم كانت ترجمة شيكتور كوزان لأفلاطون موحية إلى الشاعر لامرتين بقصيد هو غاية فى الروعة والجمال

الفلاسفة أصحاب فضل من جهة الفهم لا من جهة الفاعلية وبهذا ظلوا متخلفين عن قافلة الوجود

أنبياء ومرسلون

هنالك فرق بين النبيّ والرسول ، والظاهر أن النبيّ رجلٌ كامل من الوجهة الذاتية ، بغض النظر عن المسئولية الاجتماعية ، فبينه وبين الفيلسوف الصادق تشابه فى السلوك ، مع فوارق ستفصلها بعد حين

أما الرسول فرجلٌ مجاهد يرى من واجبه أن يستقتل فى هداية المجتمع ، وأن يرحب بالموت فى سبيل الجهاد

وقد نجح الأنبياء المرسلون فى هداية الشرق والغرب ، فإليهم يرجع الفضل فى إقامة الدعائم للحضارة الإنسانية

وهل من القليل أن يستطيع ثلاثة من الأنبياء المرسلين أن يسيطروا بالفكر والروح والعقل على الكثير من أقطار الشرق والغرب بأضعاف وأضعاف وأضعاف ما سيظر الفلاسفة الثلاثة سقراط وأفلاطون وأرسطاليس ؟

مثال

نشأ النبى محمد فى بيئة وثنية ، فصعُب عليه أن يهدى قومه بالمنطق إلى طريق الحق ، وكان منافسوه من رهبان النصارى وأحبار اليهود يعيّرونه بالعجز عن خلق آية تشهد بأنه رسول

وقد حار النبي محمد فى إقناع خصومه بأن الآيات من عند الله ، وأنه لا يملك تبديل الأنظمة الوجودية ، لأنها من وضع واجب الوجود

وفى يوم من أيام الارتياب مات ابنه إبراهيم ، وفى ذلك اليوم كسفت الشمس ، فأقبل أعداؤه مبابعين ، لأنهم وثقوا بأن الشمس لم تكسف إلا حزناً على موت ابن الرسول

عند ذلك تعرّض محمدٌ لمحنة أخلاقية ، فهو بين أمرين : الأمر الأول أن يستغلّ جهل معاصريه فيوافق على أن الشمس كسفت لموت ابنه إبراهيم فيكون من أكابر الأنبياء ، والأمر الثاني أن يصدَع بكلمة الحق ، ولو تعرّضت نبوّته للضياع

وقف محمدٌ ينادى بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وأنهما لا يتأثران بموْت ، ولو كان من الأنبياء

فى تلك اللحظة تناظرَ أصدقاء محمد عاتبين ، فقد ضاعت فرصة لا ينتظرون أن تعود

ولكن محمداً لا يبالى غضب أصدقائه إذا خاصموا الصدق

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أقول إن محمداً هو القائد الأول فى الفكر الإنسانى ، بهذه اللمحة الواحدة ، بغض النظر عما سبقها ولحقها من اللمحات

وإذن يكون القائد الأول للفكر هو محمد لا سقراط ، ولو غضب الدكتور طه حسين

وما غضبُ الدكتور طه وما خطره وهو يستوحى جماعة من المؤلفين فى تاريخ الفكر عند اليونان ؟!

صيال الآراء

أراد الدكتور طه أن يغض من العقلية الشرقية ، بحجة أنها خضعت للكهان وللأنبياء وأنا لا أتزيد عليه ، فذاك كلامه ، وهو كلام مدوّن فى كتاب طُبع مرتين ، وتبنّته وزارة المعارف بعد مجلة الهلال

والظاهر أن الدكتور طه يتوهم أن الكهانة ظاهرة شرقية لا غربية ، وذلك توهم طريف ، لأن الدكتور طه نفسه يشهد بأن سقراط قد استلهم الكهان ، مع أنه فى زعم الدكتور طه أول محرر للعقل الإنسانى من أغلال الأضاليل

وأقول بعبارة صريحة إن الكهانة لم تصر جهنة مقدسة إلا فى عهود الوثنية اليونانية ، فقد كانت لها معابد ، وكان لمعابدها سدنة وأمناء ، وكان المصير لكل معضلة فردية أو قومية رهيناً برأى « الصوت المتنكر » فى زوايا الظلام المنشور فوق معابد اليونان

أما كهان الشرق فكان مركزهم فى المجتمع أيسر وأخفّ ، لأن الشرق سبق الغرب إلى استيحاء العقل ، وهل يستطيع مكابر أن ينكر فضل الشرق فى السبق إلى رفع القواعد من الحضارة الإنسانية ؟

ثم ماذا ؟ ثم يجيء الكلام عن تفرد الشرق بالأنبياء ، وهنا تثور المعضلة من جديد ، معضلة الموازنة بين الشرق والغرب

وأقول إن النبوّات فى الشرق دانت الإنسانية بدينين يراها الحاضر ويذكرها التاريخ ، فالأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد من أرومة عربية ، وهم قد شرّقوا وغرّبوا ، وملأوا الدنيا ضجيجاً فكرياً وروحياً فى أزمان لم تعرف سوى الذى أثاروا من صيال الآراء

إن الصراع بين الإسلام والنصرانية هو أول وثبة جريئة لإيقاظ العقلية الإنسانية ، ولا نستطيع أن نتصور مدنية حقيقية تقوم على الفكر والرأى قبل الصراع الذى ثار بين المسلمين فى الشرق والنصارى فى الغرب

ومع أن الديانة الموسوية قد هُزمت منذ أجيال ، فنحن نشهد كيف قاتلت قتال المستميت ، وكيف استبقت أنصارها على وجوه التواريخ

الفكر الشرقى هو الذى زوّد الديانة الموسوية بزاد النضال ، وهى لم تنهزم إلا بقوة شرقية ، فما جلا اليهود عن بلد بعد جلائهم عن الجزيرة العربية

وطغيان هتلر وأعوانه فى طرد اليهود من ألمانيا لم يكن إلا نزعة عنصرية ، وثورة هتلر وأعوانه على الديانة المسيحية صورة من ثورته على اليهود ، لأن المسيح يهودىٌ الميلاد ، وله فى بلاد العرب أخوال

ومن المضحك أن نرى النازيين فى أوقات كروبهم يفزعون إلى الكنائس ، مع أنها معابد شرقية لا غربية

الإسلام يحرر ألمانيا وانجلترا

كانت دعوة « لوثر » دعوة جريئة فى تحرير المسيحية من العبودية الرهبانية ، فما مصدر تلك الدعوة التى حررت عقول الإنجليز وعقول الألمان ؟

مصدر تلك الدعوة مصدرٌ إسلامىٌ ، وأنا أتذكر أن الإسلام ظهر فى الشرق !

« لوثر » قوة فكرية عظيمة ، ولكنه لم يخطر على بال الدكتور طه وهو يتحدث عن قادة الفكر ، لأنه لم يأخذ الفكر عن اليونان ، مع أن « لوثر » أثر فى الأخلاق الأوربية تأثيراً لا يقاس إليه تأثير سقراط وأفلاطون

وأعجب العجب أن اليونانيين لم يستجيبوا لدعوة « لوثر » ، ولم يتركوا المذهب الأورثوذكسى

قال هتلر فى كتابه إنه لا يعترف بغير قوتين اثنتين : قوة ألمانيا وقوة انجلترا ، ولم يفته غير النص على أن ألمانيا وانجلترا يتبعان الروح الإسلامى ، وهو الروح الذى ينكر أن يكون بيننا وبين الله وسيط ، ولو كان من أعاظم الرهبان

الشرق يؤثر فى الغرب ، ولا يزال يؤثر فيه من الوجهة الروحية والعقلية ، فما هذا الذى يقول الدكتور طه حسين

هو ينقل كلاما ، وناقل الكفر ليس بكافر ، كما قال القدماء

بين الشرق والغرب

تجمّع الغرب النصرانى لمناضلة الشرق الإسلامى فى أعوام